المذهب الروحاني

مدرسة القرن العشرين

مجلة المقتطف مدرسة جامعة يتلمذ عليها كثيرون من المفكرين وينتفع بها اكثر قراء العربية لانتفاع اهل الغرب بما لديهم من امهات المجلات — ولعل هذا ما حدا بي ان اتمحل لموضوع المذهب الروحاني بعد ان قرأت ما نشرتهُ مجلة المقتطف من المساجلة التي دارت بين السر ارثر كونن دويل والمستر مكابب وما اسلفتْ نشرهُ في ما مضى من السنين وفي العهد الاخير للسر اولفر لودج وغيره من فحول العلم وعمد الفلسفة في هذا العصر — ومما عنّ لها هي ان تعقب بهِ على كل هذه الآراء المتضاربة المختلفة الاشكال والالوان

وما ينبغي الاسهاب في موضوع نحن نميل كثيراً الى الاعتقاد بانهُ سيكون مدرسة القرن العشرين وانما نحن نريد ان نضع الماعاً بما وفقنا اليهِ في هذا الباب وعسى ان يهيء لنا القدر موقفاً آخر نستطرد البحث فيهِ لنظهر القراء على اسباب الخلاف القائم بين انصار المادية واشياع الروحانية. هنالك تطمئن نفوسنا وتستريح ضمائرنا وهنالك نكون قد ادّينا ما نحسهُ من واجب وما نشعر بهِ من حق

نقول : لقد نضجت المادية في القرن التاسع عشر وقويت مدرستها واتسع نطاق نفوذها فهيمنت على المشاعر والمعتقدات وملكت على الناس مفاوز حاسيتهم وتولت طرائق تفكيرهم فحالت بينهم وبين كل ما دونها مما كان لها من هيمنة وسلطان على الماهية الادراكية من جهة والقوة الوجدانية من جهة اخرى . على حين اننا نرى ان هؤلاء قد عاشوا في جلودهم اكثر من عيشتهم بوجدانهم وتفكيراتهم . وعلى ان « ما بعد الطبيعة » لم يعدم من بين المفكرين واهل العلم من كان يؤمن بهِ ويؤيدهُ لهُ في كل مكان وفي كل زمان وان اختلف ذلك باختلاف العصور والادوار التي مرّ بها التاريخ

ولقد يخيل الينا ان ظل المدرسة المادية قد اخذ يتزاول وبدأ يروغ وأن مدرسة المذهب الروحاني تقوى كل يوم وتشتد بمن يدخلونها افواجاً افواجاً من وقت وبعد حين — من اقطاب المدرسة المادية وفحول العلم وعمد التفكير من

« في القهوة التي قرب قهوة البورصة القديمة » « ولعلّ تلاميذه لا ينسون في مستقبل الايام ان يحيوا ذكره بينهم في ذلك المكان » . هذا رأي الدكتور شبلي شميّل الذي عرف الافغاني وجالسهُ ونافشهُ . ويتابع الحديث عنهُ قائلاً :

« لم يكتب فيها اعلم شيئاً (٣) وانما كان يلقي على آخرين مقالات ضافية تنشر في جريدة مصر (٤) تحت اسمائهم . ولولا الشيخ محمد عبده يده الكاتبة لما كان لصوته صدى ولبقيت تعاليمه في صدور اكثر الذين تلقوها عنه وماتت معهم اذ كانت كل تعاليمه حديثاً يلقيه بحسب مقتضى الحال » . « وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الاخصاء وأعماله محصورة في دائرة مريديه . واما جريدة مصر فكانت سبباً كبيراً لاذاعة صيته ونشره في الآفاق » . « ولم يتهيأ له ان وقف خطيباً في قوم الا مرة واحدة أظهر فيها انه خطيب مفوه ايضاً . وكان ذلك بمسعى اديب اسحق وفي تياترو زيزينيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين فالقى خطبة اجتماعية سياسية ابدع فيها معنى ومبنى وجرأة وبقي يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون ان يبدو عليه ادنى تعب او يتلعثم حتى خلب العقول وأقام الناس واقعدهم » (٥)

جاء الافغاني مثالاً محسوساً لتفاعل الافراد والجمهور . اذ رأى ببصيرته النافذة ما يحرك نفوس اخوانه من العوامل المتفرّقة نفسه ، دون ان يهتدوا الى كيفية التلخيص والافصاح . فتكلم فيهم بلغته « المزوزجة بمعض لكنة اعجمية عن اصله الغريب وانما وقعها على الاذن كان محبوباً (٦) . تكلم فيهم بفصاحته النارية فكان لهُ اليد الطولى في تحريض الافكار واضرام الثورة العربية . فهو زعيم الناقمين في ذلك العهد ، هذا الافغاني الذي أرسلت شملة روحه الشرر من افغانستان ، الى بلاد فارس ، الى وادي النيل حيث مرّ كتيار لفاح

شعر الفكرُ المتغيرُ المتكيفُ بوجوب تبديل اساليبه والتجلي بزيّ يوافق صورتهُ الخفية فكان ذلك التطوُّر في نتاج القرائح والاقلام من شعر ونثر . وإن كان في الشعر أسبق أما في النثر فأوضح . وظهرت مع الشعر الفصيح

---

(٣) يعني ان جمال الدين لم يكتب بيده مقالات للصحف المصرية . الا انه انشأ في باريس « العروة الوثقى » التي اصدرها بالاشتراك مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده . وتوفي عن كتابين احدهما تاريخ الافغان والآخر نقد للفلاسفة الماديين نقله عن الافغانية الشيخ محمد عبده ايضاً (٤) يعني جريدة مصر التي كان يصدرها سليم النقاش واديب اسحق ثم الغيت ورخص لهما باصدار جريدة « المحروسة » محلها (٥) تنسخ هذه النبذة من فصل للدكتور شبيل نشر في مجلة « الزهور » (في دسمبر ١٩١٢) التي اقتطعت ذلك الفصل من مجموعة مذكرات قالت ان الدكتور كان يومئذ يشتغل بوضعها باسم « حوادث وخواطر » (٦) الدكتور شبيل نقلاً عن الفصل المذكور في « الزهور »

ضروبٌ من الشعر العامي كالمواليا التي لم يأنف معالجتها نفرٌ من كبار الشعراء . وتجدَّد « الزجلُ » الطليُّ . وأما وضوح النثر فجاء من انتشار العلوم الطبيعية والرياضية فمال اناس منها الى إحكام المعنى وإخراجهِ من ممعمة السجع والجناس والاستعارة والتورية . وبديهيٌّ انهُ لم يفلح في ذلك أولاً غير النفر اليسير ، وتفرَّقت من الآخرين الطرق . فتحدَّى بعضهم أسلوب الاقدمين من صدر الاسلام أو من صدر العباسيين . وتسرَّبت الى اسلوب غيرهم ركاكة لغة الدواوين التي لم تخلص منها حتى في هذه الايام . ولعلَّ أقرب الاساليب مثالاً هو اسلوب الصحافة التي كانت وما زالت عندنا ميداناً للعلماء والشعراء والادباء ، وقد تحتم عليها التوفيقُ بين مختلف الاذواق والكتابة بلغةٍ يفهمها الجميع على السواء . ولصحافتنا في ذلك تاريخٌ أغر . وما فتيء التحسن يبدو عليها من عام الى عام وهي عامل كبيرٌ في رفع فكر المجموع ، وربما كانت العامل الاكبر لانها العامل الاشمل

***

واذا كانت الحالةُ الفكرية والاجتماعية في تفاعل مستديم ، فكيف كانت يا ترى العيشة العائلية ؟ كيف كانت حالة المرأة ؟ أكان يصل اليها صدى الخارج ؟ أكانت تشتغلُ لرقي بلادها في دائرة الاسرة وتدرك معنى المطامح القومية ؟

هناك شبه جواب عن هذه الاسئلة عند امين باشا سامي الذي يخبرنا انهُ في عصر محمد علي كان الاهالي

« مقبة كؤوداً في طريق تعليم بنيهم . غير انهم لما تحققوا ان تعليمهم في تلك المدارس وتمكنهم بها ينقل حالة ابنائهم الى حالة ارقى من التي انتشلوا منها تحققت الرغبة عندهم » . « اما تعليم البنات فلم يصادف تسهيلاً في مصره حتى اضطر الى اصدار امره الى حبيب افندي في ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٤٧ هـ (١٠ نوفبر سنة ١٨٣١ م (٧) بشراء عشر جوار سودانيات صغيرات السن يلتحقن بمعرفة كلوت بك لتلقي فن الولادة ومعهن اثنان من اغوات الحرم يتعلمان فن الطب والجراحة » (٨)

كانت عامة الفتيات تتعلَّم التطريز وأشغال الابرة سواءٌ في بيوتهنَّ أو بالتردُّد على المعلمات القبطيات وغيرهنَّ . ومنهنَّ من يتعلمن القرآن على فقيه البيت . ونفسي تحدثني ان ذلك الفقيه كان ينطبقُ عليهِ وصف صاحب مذهب

---

(٧) اي قبل ولادة عائشة بتسعة اعوام (٨) « التعليم في مصر »

« هذا جناهُ أبي عليّ وما جنيت على أحد »

يأخذن التلاوة عن عجوز من اللائي فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأمات
فما حيب على الفتيات لحن اذا قرن المراد مترجات
ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آياً محكمات
سوى من كان مرتشاً يداه ولمّه من الخشنات (٩)

أليس ان هذا كان رأي اكثر الاهل في معارف البنت وفي الذين يتولون تعليمها ؟ بيد أنّ السيل متابعٌ مجراهُ والوفود الاوربية ترد أفواجاً ومعها البعوث الدينية تؤسس المدارس للبنين والبنات . فأنشئت مدرسة راهبات الراعي الصالح في شبرا منذ ١٨٤٤، وتلتها مدرسة الامريكان للبنات بالازبكية سنة ٥٦ ، ومدرسة راهبات الفرنسيسكان الايطالية سنة ٥٩ . وبينا مدارس الجوالي تتكاثر في أنحاء القطر أسست مدرسة البنات بالسيوفية سنة ٧٣ (ولم يسبقها من المدارس الاميرية سوى مدرسة الممرّضات والقوابل منذ عهد محمد علي) . وهي المدرسة التي كانت تابعة دائرة ثالثة حرم اسماعيل باشا ثم تبعت الاوقاف وتعرف اليوم بالمدرسة السنية . وتلتها مدرسة القربية سنة ٧٤ ثم انضمت ومدرسة السيوفية وعرفت بها. وكان عدد المدارس للبنات والبنين في ازدياد سريع حتى انشيء منها في حياة عائشة ما يقارب الالف من مدارس اميرية ومدارس تابعة لمجالس المديريات وأهلية وأجنبية، عدا المعاهد الدينية والكتاتيب

بيد ان المرأة لم تكن وصلت الى دور تثقيف نفسها . بل كانت راتعة في انقطاعها وجهلها شأن من اعتاد الهواء الفاسد يضيق منهُ النفس ويعتل إذا هو انتقل الى حيث الهواء نقيّ . وانما هي الاقلية المتنورة من الرجال التي كانت تطلبُ في الزوجة شريكة وصديقة ، وللابناء التربية المنزلية الصالحة ، وللبيت ذلك الجو المفرح الذي تخلقهُ المرأة بعذوبة حبها إذا هي قرنت بالحصافة والمعرفة . وكان اولئك الرجال يتشاكون النمّ فيما بينهم وليس من يقتحم مصادرة الرأي العام . حتى انبرى قاسمٌ لا يبالي بتطمين الحراب ، هادئاً كن جسّ مقاتل الخصم وتسلّح بصارم الحق واليقين (مي)

(٩) « التوميات »